﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الملك: 23 - 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ الضَّلال والهدى إلى ذِكْرِ أسبابِهِما

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقةُ الطَّريقَ الموصِلَ إلى النّجاة والهداية، وذكَرَتْ ضدَّه بطريق الإيماء والتَّلميح، فاتّضح أنَّ طريقَ الحقِّ هو سلوكُ الفطرة السَّليمة، وما سواه طريقُ الفطرة المشوّهة؛ ناسَب أن يُذْكَر ما يتعلّق بهذه الفطرةِ وسلامَتِها، فصرّحت الآيتانِ بما أوْدَعَهُ اللّهُ تَعالى في الإنسانِ من أدواتٍ مُعينَةٍ على معرفَةِ الحقِّ وهي السَّمع والبصر والفؤاد، وذكَّرَ بأصلِ خَلْقِ الإنسانِ وغايةِ ذلكَ، وهيَ العبادَةُ بطريق ذِكْرِ الحَشْرِ إليه سُبْحانَه، فانتقَلَ الكلامُ مِن ذِكْرِ الضَّلال والهدى، إلى ذِكْرِ أسبابِهِما فعلًا وتركًا، وابتداءً وانتهاءً.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَكُمۡ﴾: الإنشاءُ: ابتداءُ الخَلْقِ وإحداثُ الشَّيء وابتداؤه، ويدلُّ أصل (نشأ) على ارتِفاعٍ في شَيْءٍ وسُموٍّ[1]، ومنه: نشأ السَّحاب: ارتفع، وأنشأه اللّه تَعالى: رفعه، و"نشأ السَّحاب لحدوثه في الهواء، وتربيته شيئًا فشيئًا، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرعد: 12]، والإنشاءُ: إيجادُ الشَّيْءِ وتَرْبِيَتُه"[2]، ومِن هذا الأصل عُبِّر بها عن بدْءِ الشَّيء لأوَّل أمرِه من عَدَم، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو من أثناء كانت موجودة، ولكن لم يكُن له وجود مُتعَيَّن فيها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (نشأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98][1]، والمقصودُ بالإنشاءِ في الآيةِ: الخَلْقُ، والإيجادُ منْ عَدَمٍ[2].

2) ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: الأفئدةُ: جمْعُ فُؤادٍ، وهو القلبُ، و(فأد): أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ، ومنه: الفُؤادُ، سُمّيَ بذلك لحرارتِه، والفَأْدُ: مصدرُ فَأَدْتُهُ؛ إذا أصَبْتَ فُؤادَهُ[3]، والفُؤادُ: القلبُ، لكنْ يُقال له: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِر فيه مَعْنى التَّفَؤُّدِ، أي: التّوقُّد[4]، وقيل: أصلُ الفأْدِ الحركَةُ والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ؛ لأنّه ينبضُ، ويتحرّك كثيرًا[5].

3) ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: خلَقَكُم، يُقال: ذرأ اللّهُ تعالى الخلقَ يذْرَؤُهُم ذَرْءًا وذَرْوًا؛ إذا خَلَقَهُمْ، أي: أنْشأهم، ونشَرَهم في الأرض بتَناسُلِهم، وذرأ الشَّيءَ: كثَّره، ومنه: الذُّرِّيَّةُ، وهو اسْمٌ لنَسْلِ الثّقلَيْن، والذَّرءُ في أصل اللّغة: بثُّ الأشياءِ ونَشْرُها وبَذرُها وتفريقُها وتكثيرُها[6]، فدلالةُ الذَّرءِ الإنماءُ؛ لأنَّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّهِ تعالى ما أبْداه[7]، والمعنى هنا: خلَقَكم وبثَّكم ونَشَرَكُم في أقْطارِ الأرْضِ وأرْجائِها[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خلْقُ الإنسانِ ورزقُه الحواسَّ للهدايةِ تَقْتَضي الشُّكرَ بالطّاعة والتَّوحيد

ذكَّرتِ الآيتان بأصلِ الإنسان، وأنَّ اللّه تعالى هو الَّذي خَلَقَ الإنسانَ، وجَعَلَ له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، مُبيِّنًا أنّه وحدَه المستحقُّ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 47.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (ذرأ)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذرأ).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (ذرأ).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 182.

للعبادة دون سواه، وحاثًّا لهم على شُكر نعمِه وإفراده بالطّاعة، ولكنّ قليلًا من النّاس مَن يَشْكُر، وجاء ذلك على سبيل خطابِ النَّبيِّ ﷺ بأن يقولَ ذلكَ للنّاس، ثُمَّ أمره أن يُخاطِبَهُم بأنّ اللّهَ تَعالى هو الَّذي بَثَّكم في أرجاءِ الأرض، ونشرَكم في أنحائِها، وإليه وحدَه يكون مرجعُكم ومصيرُكم يومَ القيامة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الفَصْلِ ودلالَتُهُ:

الانتقالُ مِنَ الأصولِ الكونيّة إلى الفروعِ الإنسانيّة

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ استئنافٌ انتقلَ فيه السّياقُ من خطابٍ مُباشرٍ من اللّهِ تَعالى للمُشركين بما تضمَّن من حُججٍ ووعيد، إلى خطابٍ على لسانِ الرَّسول ﷺ، ليقولَ لَهُم ما أُمِر به، والانتقالُ هُنا جاء مِنَ الاستدلالِ بالأُصول: السَّماواتِ والأرضِ والحياةِ والمَوْتِ، إلى الاستدلالِ بالفُروعِ: مِن خَلْقِ الإنسان وأعضائِه ومَداركِه، ومِنَ الأصول الكونيَّة إلى الفروع الإنسانيَّة الدَّقيقة، وهي السَّمع والبصر والفُؤاد، فجاءت الجملةُ دون عطفٍ لإبراز عِظَم ما تَحْمِلُه مِن حُجّةٍ وتَذْكيرٍ، والفَصْلُ هنا يَشي بالاهتمامِ بهذا الخطابِ، ويُعمّق وقْعَهُ في النُّفوس[2].

دلالةُ الأمْرِ وغرضُهُ:

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ ورَفْعُ شأنِه في تكليفِهِ بالتّذكيرِ والإعلامِ

الأمْرُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ موجَّهٌ مِنَ اللّهِ تَعالى إلى سيّد الخلق وخليل اللّهِ ﷺ؛ ليكون هو المُبَلِّغَ عَن ربّه تَعالى، والخطابُ بعدَهُ مُنصبٌّ على أهلِ مكّة، وكلِّ مَن يَعْقِلُ، ويَسْتَمِع، فيعتبر[3]، وغرضُ الأمرِ الوُجوب، فإنَّ اللّهَ تَعالى أمَرَ بأنْ يُقالَ لَهُم ذلك الكلامُ، ودلَّ على شرف النَّبيِّ ﷺ، فإنَّه قد جَعَلَ له مُقامًا ورتبةً في التّذكير بعد أن كان التَّذكيرُ صادرًا عن الحقِّ ﷻ؛ إذ لقَّنه

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 219، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 516، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 182، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 878.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 47.

(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 60.

الحُجَجَ الَّتي يَنْبَغي أن يُحاجِجَ بها المُشركين من أجلِ بيان فساد مُعتقَداتِهم، والاستدلال على العقيدةِ الصَّحيحة[1].

بلاغَةُ القَصْرِ وفائدتُه:

قطْعُ كلِّ شبهةٍ ودفْعُ كلِّ وهمٍ قد يَتذرَّعُ به أهلُ الباطلِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أسلوبُ قصْرٍ، بتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ، وهو مفيدٌ قصرَ الإيجادِ والإنشاء على اللّه وحده دون سواه، وهو قَصْرُ إفراد؛ إذ يُنزَّل المُشركون منزلةَ من يَعْتَقِد أنَّ لتلك المعبوداتِ الباطلة نصيبًا في الخلق والإيجاد، فجاءُ الأسلوب؛ ليؤكِّد أنَّ اللّه تعالى هو المُتفرِّدُ بالإنشاء، دون أدنى مُشاركةٍ أو مُعارضَةٍ، وسِرُّ التَّأكيد بالقصر أنَّه يقطَعُ كُلَّ شُبهة قد يتذرَّع بها أهلُ الشِّرك، ويقرِّرُ في العقول أنَّ هذا الخلق وما تَبِعَهُ مِن آلات الإحساسِ والإدراك لا يُمْكِنُ أن يكون إلّا بفاعلٍ واحدٍ، فلا مُصوِّرَ ولا موجدَ ولا مُنعمَ بهذه النِّعم سوى اللّهِ ﷻ[2].

نكتةُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ:

جاء التّعبيرُ بالاسْمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾؛ لإفادة التَّعليل بصِلَةِ الموصول، أي: لأنَّه هو الَّذي أنشأكم، وجعَلَ لكم السَّمع والأبصار والأفئدة لتَشْكروهُ.

بلاغَةُ التَّعبير بمفردةِ ﴿أَنشَأَكُمْ﴾:

الـدَّلالـةُ على الإحداثِ المُقْتَرِن بالتَّكامل المُتدرِّج

اختار النّظمُ الكريم فعلَ ﴿أَنشَأَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على الإحداث المقرونِ بالتَّكامل المُتدرِّج، كما يُنبت الزَّرع، فينمو شيئًا فشيئًا حتَّى يكتَمِلَ، وفي التَّعبير بالإنشاءِ تذكيرٌ بقدرةِ اللّه تَعالى وسُلطانه، وعلمِه وحِكْمَتِه، وما أولاه لعبادِه مِن نِعَمٍ وآلاء، مع التَّنبيه على تَنزُّهه سبحانه عن الأمثالِ والنُّظراءِ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 29/ 47، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 264.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنة: 10/ 126، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 535.

مناسبَةُ العَطْفِ ودلالَتُه:

إنشاءُ الإنسانِ أصْلُ جَعْلِ الحواسِّ والعَقْلِ

لمّا ذكر اللّهُ سبحانه إنشاءَ البشَرِ وخَلْقَهُم؛ ناسب عَطْفَ أجَلِّ النِّعم بعد نعمة الإيجاد، الّتي يَتَوصَّل الإنسانُ بها إلى رُتَب الهداية، وهي الَّتي خُصَّ بها الإنسانُ على سائر المخلوقات، وجاء العطفُ بالواوِ لمُطْلَقِ التَّشريك والإيماء إلى التّرتيب، فالجَعْلُ بعد الإنشاء، وكلاهما فعلٌ صادرٌ عن اللّهِ تعالى، فهو الَّذي أنشأ، وجعَلَ دونَ سواهُ.

نكتَةُ استِعمالِ مفردَةِ (جعل) دون (خلق):

الامتنانُ بذِكْرِ خُصوصِ الجَعْلِ بعدَ عُمومِ الإنشاءِ

آثَرَ النَّظم الكريمُ استعمالَ فِعْلِ الجَعْلِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ دون فعل الخَلْق؛ إذ إنَّ (الجعل) أخصُّ من (الخلق)؛ فالجَعْلُ تصييرُ حالِ الخلق والإنشاء على صورةٍ مكتَمِلَةٍ بعدَ أصلِ الخلق، فهو انتقالٌ مِنَ العموم إلى الخصوص، وأيضًا فإنَّه يُفيد تخصيصَ ما خُلِق بوظيفَةٍ معيَّنة، وترتيبَه على وجهٍ يليقُ بالغَرَضِ الَّذي أُريدَ مِنْهُ، فذِكْرُ السَّمع والبصر والفؤاد بعدَ الإنشاءِ إشارَةٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانه ركَّب في الإنسان هذه الحواسَّ والقوى؛ لتكونَ له أدواتِ إدراكٍ وهدايَةٍ[1].

نوعُ اللّامِ ودلالَتُها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ لامُ الاختصاص، أي: إنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ خَصَّ البَشَر بهذهِ النِّعَمِ الجليلةِ، وبهذا الكمالِ والانتظام دونَ غَيْرِهِم مِنَ المَخْلوقات[2].

نكتَةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ وإفرادِه:

الوحيُ المَسْموعُ واحِدٌ، فكان الأنسَب إفراد السَّمْعِ

جاء لفظُ السَّمع مَصْدَرًا، والمصادرُ لا تُجمع، فهو يشمَلُ القليلَ والكثير، فلا يُثنَّى، ولا يُجمع، فوَرَدَ بلَفْظِ الإفرادِ على الأصل، ولأنَّ العلمَ الحاصل بالسَّمع نوعٌ واحِدٌ، وهو الصَّوت المسموعُ المتضمِّن

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 4/ 321، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 60.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 259.

الوحيَ، بينَما تتعدَّد صوَرُ الإدراك الحاصلِ بالبَصَر والفؤادِ، فجاء التَّعبيرُ على هَذا النَّحو البليغِ[1].

وأُفرِد السَّمع أيضًا؛ لأنَّ السَّمع يَعُمُّ جميع الجهاتِ بلا تَكَلُّف، فيُدرك الإنسانُ الأصواتَ مِن أمامِه وخلفِه وفوقِه وتحتِه وعن يمينِه وشماله من غير التفاتٍ أو تحوُّل، بخلاف البَصَر الَّذي يَقتَصِر على ما هو أمامَ العين، ولا يُدرِك ما وراءَها إلّا بالانتقالِ أو الالتفات، وأيضًا فإنَّ النّاس غالبًا يتَقارَبون في قوَّة السَّمع، بخلاف تفاوُتِهم المَلْحوظِ في قوَّة الإبصارِ[2].

نكتَةُ تَعْريفِ (الأبصار) وجَمْعِهِ:

الأدلَّـة الحسّيّة المُبْصَرَةُ يُناسِبُها جَمْعُ البصَرِ

عُرِّف لفظ (الأبصار)، وجُمِع؛ لأنَّ المقصود الأبصارُ الَّتي يُباشِر النّاسُ بها النَّظر في الكائنات، وهي المعهودةُ الَّتي يرون بها آياتِ اللّه تَعالى في الكونِ الفَسيح، والمُشاهَداتُ مُتنوِّعةٌ مُتعدِّدةٌ، وأنظار النّاس في تلك الآيات تتفاوت بَيْنَ تَدبُّر عميقٍ وسَطحيٍّ، فاقتضى ذلك تَعَدُّد المُبصَراتِ بتعدُّد مراتب ما يستنبطونَهُ من أدلَّةِ قُدرة اللّهِ تَعالى وآياته في الآفاق، ولمّا كان المسموعُ - وهو الوحيُ - واحدًا؛ ناسَبه إفرادُ السَّمع، وكانت المُبْصَراتُ - وهي الأدلَّة الحسّيّة - متعدِّدةً؛ ناسَبهُ جَمْعُ البَصَر[3].

نُكْتَةُ جَمْعِ (الأفئدة):

تَعَـدُّدُ مُدركات النّـاس وتنـوُّع تعلُّقاتها إخبارٌ بـقـصـدِ إقـامـةِ الحُجَّة

الفُؤاد هو القَلْبُ الَّذي يقَعُ بهِ الإدراك والفَهْمُ، وجُمِعَ الفؤاد في قوله: ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾؛ لأنَّها تتباين بِحَسَبِ ما تستوعِبُه من إنذار أو تبشير، ومن حُجَّةٍ أو بُرهانٍ، فاختلاف القلوب راجِعٌ إلى اختلاف استعداد النّاس ومَدى تقبُّلهم للحقائقِ، وفي جَمْعِها أيضًا إشارةٌ إلى تَعَدُّد مُدركاتِها وتنوُّع تعلُّقاتِها[4].

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 27.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 265.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 27.
(4) الباليسانيّ، حسن البيان في تفسير القرآن: 6/ 2613، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 27.

نُكْتَةُ تقديمِ السَّمع على البَصَر:

السَّمعُ أوَّلُ الحواسِّ وأهَمُّها في دَرْكِ الوَحْيِ وفَهْمِه

قُدِّم ذِكْرُ السَّمع على البصر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ لأنَّ السَّمع أسبَقُ في وجودِه وتكوُّنه من البصر، والسَّمع أوَّلُ الحواسِّ إدراكًا للوحي، وأوَّلُ ما يَبتدئُ به الإنسانُ حياتَه كلَّها، وحياتَه اليوميّة عند الاستيقاظ، وآخِر ما يكونُ معَ الإنسان قُبَيْلَ نومِه، وقبلَ مُغادَرَتِه الحياةَ.

علَّة تقديم السَّمع والبصَرِ على الأفئدة:

تقديمُ الوسائلِ على الغاياتِ، والأدواتِ على المَقاصِد

قُدِّم ذِكرُ السَّمع والبصر على الأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾؛ لأنَّهما بمنزلة المَنافذ الأولى الَّتي يَدْخُل منها العِلْمُ والمعرفَةُ إلى القَلْبِ، فهما القَناتانِ اللَّتان تَصُبّان في الفُؤاد، فيتلقّى بهما ما يُسمَع، وما يُبصَر، ثُمَّ يعيه القلب مَحَلُّ الإدراك والفهم، فجيءَ بالأفئدة بعدَهُما؛ لأنَّه مَحَلُّ التَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّعقُّل، وهذه لا تتحقَّق إلّا بعد وُرود المُدرَكاتِ عن طريقِ السَّمع والبصر، فجاء التَّرتيبُ دقيقًا: السَّمع أوَّلًا لسَبْقه وجودًا، ثُمَّ الأبصارُ لاتِّصالها بالمُشاهَدات، وأخيرًا الأفئدةُ؛ لأنَّها محلُّ وعي ما يَرِدُ عليها[1]، فهو تقديمُ الوسائلِ على الغاياتِ، والأدواتِ على المقاصِدِ.

تَوْجيهُ تخصيصِ السَّمع والأبصارِ والأفئدةِ بالذِّكْرِ:

أعظَمُ أدواتِ المعرفةِ عندَ الإنسانِ مضيَّعةٌ في اتِّباع الأهواء واقتراف الشَّهواتِ

خَصَّ النّظمُ الكريمُ السَّمع والأبصار والأفئدةَ بالذِّكر في هذه الآية؛ لِما فيها مِنَ الامتنان العظيم؛ إذْ هي أعظمُ ما يَمْلِكُه الإنسانُ مِن أدواتِ المعرفَةِ والإدراك، فاللهُ ﷻ يذكّرهم بأنّه هو الَّذي مَنَحَهُم هذه القوى الشَّريفة؛ ليهتدوا بها إلى الحقِّ، ويسلكوا بها سبيلَ الرَّشاد، غير أنَّهم لم يَنْتَفعوا بها، فأعْرَضوا عن السَّماع النّافع، ولم يَعْتَبِروا بما رأوا من أدلَّةِ القُدرة، ولم يتفكَّروا بعُقولِهم في عواقبِ أمْرِهم ولا في براهين التَّوحيد، فجاءت الآيةُ في مقام

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 265.

التَّذكير والتَّنديد والتَّقرير؛ لتدلَّ على أنَّهم قد ضيّعوا هذه المواهبَ الجليلة، وحوَّلوها عن وجْهِها الصَّحيح، فكأنَّهم لَم يَشْكُروا اللّهَ تعالى أصلًا[1].

كما أنَّ غرضَ السّياقِ التَّذكيرُ والوعظُ بالآيات الكونيَّة والشَّرعيَّة، وهذا لا يتحقَّق إلّا بما يُسْمَعُ مِنَ الحُجج والبراهين، وما يُبصَر من أدلَّةِ القُدرة، وما يُعقَل بالقلب من معانٍ ومواعظَ، فتخصيصُ هذه الثَّلاثة بالذّكر يوجِّه الخطابَ إلى أقوى منافذِ الإدراك المؤدّيَة إلى اليقين؛ إذ السَّمع آلةُ تلقّي الوَحْيِ والتَّعليم، والبصرُ وسيلَةُ مُشاهدَةِ الآيات في الآفاق والأنفس، والفؤادُ موضِعُ التَّدبُّر والتَّفكُّر الَّذي تكونُ به الهداية، وبذلك يكون في تخصيصِها إيضاحٌ للحُجَّة، وقطعٌ لأيِّ عُذْرٍ قَد يَتَشَبَّثُ به المنكرون للمحجَّة، مع توبيخِهم على عدَمِ شُكْرِهم للنِّعَم الجليلة الَّتي مَنَحَهُم اللّهُ تَعالى إيّاها[2].

بلاغَةُ التَّعبير بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ بين الحقيقةِ والمَجاز:

يحتمل لفظُ ﴿قَلِيلًا﴾ أنْ يُحمَلَ على حقيقته، أي: إنّ شُكْرَهُم للنِّعم حاصلٌ في بعض الأحيان، لكنَّه نادر ومتقطّع، فقليلٌ مِنَ النّاس مَنْ يَشْكُرُ، وقليلٌ مِنَ الشُّكر يصدر عنهم، فهو قليلٌ غيرُ نافعٍ، والغالب هو الإعراضُ والغفلة[3]، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ مُستعارًا لمعنَى النَّفْي والعَدَم على وجهِ التَّلميح، فقد استُعير لفظ القِلَّة للتَّعبير عن النَّفي المُطلق؛ تنبيهًا على انعدام الشُّكر في واقعهم، على نحو قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: 88]، أي: لا يُؤمنون أصلًا، فجيء بالقِلَّة تلميحًا إلى العدم، على عادة العرب في قولهم: قلّ ما تفعل كذا، يريدون به نفيَ الفِعْلِ بالكلّيَّة، كأنّه قيل: إنْ شَكَرْتُم؛ فهو شكرٌ قليلٌ، فما بالكم أنّكم لَم تَشْكُروا أصلًا، فالمعنى في الحالَيْنِ

إنْ صَدَر الشُّكر عن النّاس؛ فقليلٌ لا يليق بأدنى مراتِبِ الشُّكْرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 595، ودروزة، التَّفسير الحديث: 5/ 381.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 315.
(3) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 5/ 343، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.

يَشي بذمٍّ شديدٍ: إمّا لقلّةِ شُكْرِهم مقارنةً بجَسامَةِ النِّعم، وإمّا لانْعِدامِ الشُّكْرِ أصلًا[1].

بلاغَةُ الكِنايَةِ وغرَضُها البيانيُّ:

الشُّكر القليل ليس بشكرٍ على التّحقيق ولا امتنانٌ على التّدقيق

التَّعبير بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كنايةٌ عن نفي الشُّكر وانعدامه؛ إذْ لم يُصرِّح النَّظم الكريمُ بِعدَم شُكرهم، بل عرَضَ المعنى في صورةٍ بديعةٍ، جَعلت القِلَّة قائمةً مقام العَدَم، على سبيل التَّلميح المقرونِ بالتَّوبيخ، وفيه شيء من التَّهكُّم الضِّمنيِّ، فكأنَّ ما يصدر عنهم من الشُّكر لا يستحقُّ أن يُعدَّ شكرًا أصلًا، فهو قليلٌ إلى درجة العدم، وهذا مِن دقائق الكنايَةِ القُرآنيَّة[2].

دلالَةُ التّوكيد بِـ﴿مَّا﴾:

التّأكيد على نُدْرَةِ شُكْرِهم أو انعدامِهِ

جاء استعمال ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ لتوكيد معنى القِلَّة، والتَّقدير: (شُكرًا قليلًا تشكرون)، أو (زمانًا قليلًا تشكرون)، وفي هذا الأسلوب مزيدُ تقريع وذمٍّ؛ إذ يُبرز أنَّ شُكرَهم - إن وُجد - لا يُجاوز القليل النّادر، بل يكاد يُعدَم بالكلّيَّة[3].

بلاغَةُ التّكرار وغرضُهُ:

تعظيمُ شَأن المعنى وتشريفُ المضمونِ وتوكيدُ دلالَتِه

آثر النّظمُ الكريم تكرار ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى﴾ دون الاكتفاءِ بالعطف، فلم يردِ البيانُ القرآنيُّ: (وذرأكم)؛ وذلك لتعظيم الشَّأن وتشريف المَقول، وتوكيدِ مضمونه، والتَّكرار هُنا دليلٌ على أنَّ الكلامَ حُجّةٌ راسخة، وبرهانٌ قاطع، يُلقِّنه اللّهُ ﷻ لنبيّه ﷺ؛ ليواجه به المُشركين في جَوْلاتِ المُحاجَّة لإقامة الحُجَّة، وإبطال الشُّبهة، ويُرسِّخ العقيدة الصَّحيحة[4].

---

(1) زاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 8/ 284، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 315.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 160.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 315، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 4/ 236.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.

بلاغَةُ الإيجازِ في التَّعبير بفِعْلِ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾:

جَمَعَ لَفْظُ (ذرأ) بينَ الإيجادِ والامتِدادِ وإعادةِ الحَشْرِ بعلمٍ تامٍّ لواقعٍ سَيَتِمُّ

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بفِعْلٍ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ دون (خَلَقَكُم)، وفِعْلُ (ذَرَأَ) يدلُّ على الخَلْقِ والإيجاد، وعلى البثّ والتَّكثير والانتشار؛ وذلك للإيحاء بأنَّ اللّهَ تعالى خلَقَهُم، ثُمَّ بثّهم في الأرض، وكثّرهم، وجَعَلَهُم يَنْتَشِرون في أرجائِها للانتفاعِ بخَيْراتِها، فجَمَعَ النَّظم الكريم بين مَعْنى الإيجادِ ابتداءً والإمداد مآلًا، وهذا مِن بديعِ الإيجاز الَّذي يُؤدّيه لفظٌ واحد، وفيه أيضًا دلالة على إمكانِ الحَشْر، فمَن بَثَّ النّاس في أقطارِ الأرض قادِرٌ على أنْ يجمَعَهُم بعد التَّفرُّق، ويعيدَهُم للحِساب والجزاء[1]، وقد جاء فعل ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ ماضيًا؛ لبيان أنَّ الأمر قد تحقَّق، واستَتَمَّ، وأنَّ اللّه تعالى قد ذرأ البَشَر في علْمِه، وأخبرَ عَن ذلك قبل استِتمامِهِ واقعًا، فما تَمَّ في علمِهِ؛ فهو متحقِّق الوقوعِ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الإيماءُ إلى الأرْضِ المعهودَةِ لدى المخاطَبينَ

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لامُ العَهْدِ العلميِّ، والمرادُ الأرض المعهودةُ الَّتي يعيشُ فيها العبادُ، وليس المرادُ باللّام لامَ الجنس المفيدةِ العمومَ.

سِرُّ التَّأكيدِ بقَصْرِ المُسند على المُسندِ إليه:

إفرادُ الله تعالى بالخَلْقِ يلزم مِنهُ إفرادُهُ بالطّاعة والعبادةِ

أفاد تعريفُ طرفَي الإسنادِ القصرَ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادة إفرادِ اللّه تعالى وحده بفِعْلِ الخلق والبثِّ؛ ليُرتِّب عليه إفرادَهُ بالطّاعة والعبادة والاعتقاد، فنَزَّلَ الخطابُ المشركينَ منزلةَ مَن يزعُم مشاركة الأصنام للّهِ تَعالى في إيجاد البَشَر وبثّهم في الأرض، فجاء هذا الأسلوبُ قصرَ إفرادٍ يُفهم منه أنّ اللّه تَعالى وحدَهُ لا شريكَ لَهُ في هذا التَّدبير العجيبِ،

(1) الحصنيّ، المقتطف: 5/ 290، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 46، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 536.

فليس لآلهتهم المزعومة نصيبٌ فيهِ، وهو مِن أقوى أساليبِ التَّوكيد، الَّتي تَقْطَعُ دابِرَ الشُّبهة، وتقرِّر حقيقةَ التَّوحيد[1].

بلاغَةُ استِعمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّة:

تكثيرُ الخَلْقِ في الأرض للانتشارِ والانتفاعِ بخيراتِها

استُعمِل الحرف ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ وذلك لبيانِ أنَّ الإنشاءَ والخلق للعَيْشِ والانتشار والانتفاع بخيراتها[2]، والانتشار يكون في الأرض لا عليها؛ ذلك أنّ الأرض فيها سهولٌ ووديان وأغوار ومغاراتٌ وكهوف، فيها منافع كثيرة للنّاس، والجوَلانُ في الأرض يُعبَّر عنه بحرف الظّرفيّة لا بحرف الاستعلاءِ، فأدّى هذا الحرفُ مقصودَهُ؛ لبيان غايةِ السّياق في الامتنانِ.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾:

عبادُ الله تعالى مِلكُ يديه دنيا وأخرى

الواوُ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عاطفةٌ[3] الجملةَ بعدها على جملةِ الصِّلةِ ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فهي داخلةٌ في حيِّز الصِّلةِ، ووُصِلَت الجملةُ بما قبلها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ لاتِّحادهما في الخبريَّة، وبينهما تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا اللَّفْظُ؛ فلاشتمالِ الجملَتين على ضميرِ الخطابِ، وأمّا في المعنى؛ فلِما فيهما من بيانِ تصرُّفِ اللهِ تعالى في العبادِ في الدّارين: الدُّنيا والآخرةِ.

فائدَةُ تقديمِ القَيْدِ:

الحَشْرُ لا يكون إلّا للهِ تعالى، فإنكارُهُ اقتَضى الاهتمامَ به

قُدِّم الجارُّ والمجرور على عاملِهِ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحصرِ، أي: قصر الحَشْرِ على اللهِ تَعالى وحدَه، والمعنى: لا تُرجَعونَ إلّا إليه، وهذا فيه ردٌّ ضمنيٌّ على ما قد يَزْعُمُه المُشْرِكونَ مِن شفاعَةِ أو رجوعٍ لآلهتهم[4]، وذهب بعضُ أهل العلمِ إلى أنَّهُ: قُدِّم للاهتمام

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47، 48.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 27.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 213.

ولرعايةِ الفاصلَةِ لا للحصر؛ لأنَّ المُشركين لم يكونوا يُثبتون الحشر أصلًا، فلا يُتصوَّر منهم ادِّعاءُ أن يكون إلى غير الله تَعالى[1]، وهو الأوْلى بالقبولِ، إلّا أن يُحمل القَصْرُ على المبالغة بافتِراض دَعْوى باطلةٍ، فيكون القَصْرُ لردِّها وإثبات الحشرِ لله تعالى وحدَه.

دلالةُ التَّعبير بالفِعْلِ المضارعِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

تهويلُ المَوْقِف وتعظيمُ شَأنِه

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق الحَشْر واستِحْضارِ صورتِهِ ماثلةً أمامَ المُتلَقّي، وفي بنائِهِ للمَفْعولِ إظهارٌ لرَهْبَةِ الفِعْلِ وتعظيمِ شأنِه؛ إذِ المَقْصودُ تهويل الموقفِ لا بيان فاعِلِ الحَشْر، ولأنَّ الفاعل معلومٌ، وهو الله تعالى؛ إذ لا يَحْشُر العبادَ في الآخرةِ إلّا هو سُبْحانَهُ.

براعَةُ التَّقابل اللَّفظيّ:

المُقابلة بين النَّشر الدُّنيويِّ والنَّشر الأُخْرويِّ

قابلَ قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، بين الذَّرء والحشر، والذّرء: هو الانتشار، أي: بثّ الخلق في الأرض وتكثيرُهم فيها، حتّى يتوزّعوا في أرجائها، والحَشْرُ: هو الجمع بعد النَّشر، أي: استدعاء هؤلاء المُبَعْثَرين في الأرض؛ ليُحشروا في موقفٍ واحد بعد أن كانوا مُنْتَشرين، فالمَشْهَدُ الأوَّل - وهو الذَّرء - تصويرٌ للبثّ والانتشار والانطلاق في الأرض، والمشهدُ الثّاني - وهو الحَشْرُ - تصويرٌ للعَوْدَةِ والجَمْعِ بعد التَّفرّق، وهذه مقابلةٌ بديعَةٌ تَجْتَمِع فيها الصّورةُ الحسّيَّة، وهي الانتشار والجمع، مَعَ الدّلالة المعنويَّة، وهي الخَلْقُ والبعث، فيتجلّى التَّوازن بينَ البدءِ والنِّهاية، والنَّشر ثُمَّ الحشر، على أسلوب القرآنِ في إثارة الحِسِّ وتنبيه الفِكْرِ، وفيه بيانُ الغايَةِ بعدَ ذِكْرِ وسيلَتِها، فلا حَشْرَ إلّا بعد الذَّرء والنَّشر في الأرض، فذُكِرَت الوسيلةُ ابتداءً الموصلةُ إلى الغايةِ، وهي الحَشْرُ الَّذي يكون فيه الحسابُ والجزاءُ على ما كانَ مِنَ النّاس أثناء نَشْرِهِم في الأرضِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.

بلاغَةُ الكِناية في جملةِ الفاصلة:

الـجَـمْـعُ بَـيْنَ التَّذكير بالموت والإنـــذارِ بِـما يَعْقُبُه مِن بعثٍ وحَشْرٍ

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كنايَةٌ عَن موصوفٍ، وهو الموتُ؛ إذ كَنَّى اللّهُ تَعالى بمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ المُلازمة؛ فالحشر يكونُ بعدَ البَعْثِ الَّذي يسبِقُهُ الموت، وقد دمَجَ بَيْنَ تذكيرِهم بالموت الَّذي لا بُدَّ منه، وإنذارِهم بالبَعْثِ والحَشْر[1]، فجَمَعَتِ الآيةُ بَيْنَ التَّذكير بالموتِ الَّذي لا مفرَّ منه، والإنذارِ بِما يَعْقُبُه مِن بَعْثٍ وحَشْرٍ، في نسَقٍ بليغ يرسّخُ المعنى في النُّفوسِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"